الرحلة تاريخها وأهميتها في الأدب العربي

د. عارف قاضي*

أدب الرحلة هو فن التعبير عن مشاعر تختلج في نفس الأديب المغترب تجاه كل ما يراه ويعايشه ويقرأه عن ملامح بلد أجنبي، وتقاليد سكانه وخليفته السياسية والثقافية والاجتماعية وأحداث يعايشها الأديب مواقف تأثر بها، وهموم عانى منها في ذلك البلد الأجنبي طالت أم قصرت مدة إقامته فيها، والتعبير عن كل ذلك بأسلوب أدبي شائق يغري القارئ بمواصلة القراءة دون ملل أو كلل.

رغم أن لأدب الرحلات سمات وخصائص تميزه، إلا أن أهم ميزة من وجهة نظري هي الحرية، حرية الأديب في أن يكتب كيفما شاء، يضحكنا تارة ويبكينا تارة أخرى، مدى نجاح الأديب في كتابته في أدب الرحلة بصفة خاصة يتوقف في نظري على كم التعايش الوجداني الذي يخلقه في قلب وضمير القارئ، فكلما تأثر القارئ أكثر واندمج في أحداث القصة، كان ذلك برهانا على قدرة الكاتب وتميزه في كتابته.

عرف الإنسان الرحلة او الترحال والتنقل بفطرته التي جبل عليها منذ بدء الخليفة منذ هبط آدم وحواء إلى الأرض ليعبدوا الله وليعمروا بأولادهما الأرض، وينشروا فيها بسعيهم وراء مصادر الماء، التي بدورها ستوفر لهم إمكانية الزراعة والشرب وتوفر مصادر الرزق لهم ولحيواناتهم.

لم تظهر الكتابة عن الرحلة إلا ربما فيما بعد الهجرة النبوية، والفتوحات

---

* الأستاذ المساعد الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا، أونتي بورة كشمير

الإسلامية وازدهار الحضارة وثقافتها، فظهرت كتابات عن رحلات قام بها رحالة عرب، حيث ظهر أدب الرحلات ليشكل أحد أهم تجليات الثقافة في ذلك العصر، وليجوب بعض الرحالة العرب بلادا عربية تجاور بلادهم بل وصل بعضهم إلى بلاد غير عربية وبعيدة كالصين والهند وبلاد ما وراء النهر وتركيا وغيرها.

قد أدى الرحالة العرب مهمة سامية للأجيال القادمة إذ أسهمت كتاباتهم لأدب الرحلات في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لتلك البلاد وأفكار سكانها وعادات وتقاليد تختلف وقد تتفق مع عادات البلاد التي جاء منها هؤلاء الرحالة فأسهموا بذلك في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى، وإثارة الاهتمام بها وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للنهل من معارفها وعلومها.

تلعب الرحلات دورا بارزا في ثقافة التواصل بين الشعوب وبعضها البعض، وإذا كانت اللغة تمثل أبرز قنوات التواصل مع الآخر، فإن الرحلات تلعب ذلك الدور الكبير أيضاً في التعرف علي الآخر ومشاركته أفكاره وأطروحاته، وتفرض الثقافة المنتجة للتواصل، والتواصل المنتج للثقافة الإنسانية المتنورة تحديات كبري تجعل من دراسة ثقافة التواصل أمراً ضروريا يسهم في تمكين الأفراد والجماعات والشعوب من اكتسابها لأن اكتسابها هو الضامن الوحيد للوصول إلى الحالة المأمولة من التفاعل والتجانس والتعارف في ظل تعدد الثقافات بعيدا عن احتكار الأفراد الجماعات المتمتعين بالقوة والنفوذ لها ولأدواتها ومكتسباتها.

وإذا كانت العولمة تؤمن ضمن أهدافها الرئيسية بالتشرذم والتفرق والهيمنة من خلال محاولاتها المستميتة للتقارب بين الثقافات وجعلها في بوتقة واحدة تضم الدول ذات الحضارات العريقة مع الدول التي لا حضارات لها حتى

تمحو هويتها الثقافية.

إلا أن الرحلات تقف حائلاً أمام تلك المخططات، فالرحالة من خلال توقفهم في محطات بين الرحلة والأخرى من أجل الراحة والاستجمام يتيح لنفسه الفرصة مع الآخرين للتعرف على إناس آخرين يتصل بهم اتصالا مباشراً ويستمع إليهم ويتأثر بهم ويؤثر عليهم كذلك فكراً ومذهباً وأعرافاً وعادات، وربما لإقامة علاقات تجارية وإنسانية وربما أيضاً لعقد مصاهرات وبناء أسر وخلافه.

وهناك علاقة وطيدة بين الرحلات وثقافة التواصل حيث أن المقصود من ثقافة التواصل هو الثقافة التبادلية بين الرحالة والبشر في الدول التي يقوم بزيارتها ويرتحل إليها والاتصال بينهما تحاورا وتعارفا وتلاقحا، وهذا التواصل قد يكون تواصلا أفقيا يتم بين الأجيال المتعاقبة لثقافة ما أو بين فئاتها أو طبقاتها المترابطة اجتماعيا.

ولا شك أن الرحلات بما تمثله من لقاءات للرحالة مع مختلف أطياف الشعوب والتآلف الحادث مع المسئولين الكبار في تلك البلدان تقف حائلا أمام العولمة التي تروج لها بعض الشعوب التي تسعي إلى السيطرة السياسية علي العالم والتي تريد أن تطرح ثقافة معينة بطريقة معينة تهيمن علي الفكر الإنساني وتسيطر علي الحضارة الكونية بدعوى أن العالم أصبح قرية كونية صغيرة وأن الثقافات تنخرط داخل بعضها البعض لتتسع للجميع، ولاشك أن الرحلات بتأثيرها الواضح في الحياة الاجتماعية تقف حجر عثرة أمام طموحات العولمة والغزو الثقافي فهي تؤدي إلى ثقافة التواصل مع الآخر وتدحر ثقافة الغزو .

المؤلفات المهمة في الرحلات:

اكتب هنا بعض الرحلات لقدماء العرب وترجمة أحوالهم، وتعريفا عن

كتبهم ومؤلفاتهم التي ألفت في القرون المتأخرة للعهد الأموي والعباسي، ومن تلك الكتب للعديد من الرحالة والتجار والجغرافيين وعلماء الأفلاك والنجوم، ومن المعلوم أن المؤلفات في الجغرافيا لم تظهر جليا واضحا إلا في القرن الثالث الهجري خلال عهد خلفاء بني عباس، وهذه المؤلفات تصف أجزاء وأقاليم الدولة الإسلامية وما يجاورها من البلاد، وكذا الأخبار السياسة والاجتماعية، كما دونوا تقويم البلدان والحكومات.

رحلة ابن بطوطة:

مؤلف هذه الرحلة الشهيرة هو صاحبها شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطولة، وقد عرف باللواتي نسبة إلى قبيلة لواتة البربرية، كما لقب شمس الدين، ولد في طنجة سنة ٧٠٥هـ بالمغرب لأسرة عريقة في المجد والكرامة نبغ فيها أصحاب الكفاءات البارزة. ولما بلغ ابن بطوطة الثانية والعشرين من عمره خرج من طنجة مرتحلا لتأدية فريضة الحج عام ٧٢٥هـ وقد عرف رفاقه في السفر تبحره في العلوم الشرعية كما تبينوا فضله ودماثة خلقه وذلك في طريقهم إلى مصر فجعلوه قاضيا لهم، وخرج من طنجة سنة ٧٢٥هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين وبلاد التتر وأواسط أفريقيا. واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم، وكان ينظم الشعر، واستعان بهباتهم على أسفاره.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، وقد استغرق في مجموعها نحو تسع وعشرين سنة، وكان أطولها الرحلة الأولى التي لم يترك في خلالها ناحية من نواحي المغرب والمشرق إلا زارها، وكانت أطول إقامة له في بلاد الهند حيث تولى القضاء سنتين ثم في الصين حيث تولى القضاء سنة ونصف سنة. أما رحلته

الثانية فكانت إلى أسبانيا، والثالثة كانت إلى السودان.

طبعت أولا هذه الرحلة مع الترجمة الفرنسية في أربعة مجلدات عام ١٨٥٩م من باريس ونقلت محتوياتها بعد إلى اللغتين التركية والفارسية. وبدأ المترجم الأوربي "كب" نقلها إلى اللغة الإنجليزية طبع منها مجدان عام ١٩٦٠م من مكتبة دار الصادر.

قد أعطى ابن بطوطة صورة واضحة من الشؤون الاجتماعية في البدان المختلفة التي زارها، فقد وصف لنا الزوايا والرابطات الصوفية التي كانت منتشرة في الجبال المحيطة بها مثل رباط العفات. وقد أعجب ابن بطوطة إعجابا شديدا بحسن خلق أهل السودان وجميل أفعالهم وخصالهم ومن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه ومنها شمول الأمن في بلادهم.

خريدة العجائب لابن وردي:

اسم الكتاب الكامل هو "خريدة العجائب وفريدة الغرائب " لصاحبه العالم العربي أبو حفص بن الوردي المتوفى عام ٨٦١ هـ. صدر أولا من المكتبة المحمودية في القاهرة عام ١٣١٦هـ قيدت في الكتاب المعارف والمعلومات الجغرافية، وخواص الأحجار الثمينة ومنافعها وفوائد الحيوانات والزروع ومنافع الأعضاء للطيور ومزايا الحكومات وخصائصها، كما يشتمل على ذكر المعلومات والمعارف التاريخية والدينية غير المنسجمة بعضها مع بعض.

قد صرح المؤلف في المقدمة أنه طلب منه حاكم من حكام الحكومة أن يرسم له خريطة الأرض ويحدد مواضع الجبال والأنهار والحار والجزائر والبلدان ويشفي غليله الجغرافي فرسم صورة الأرض المكورة وحدد المدن والجزائر والجبال والأنهار والبحار.

قد جمع مقتبسات عديدة من المؤلفات والكتب القديمة، وذكر حكايات طريفة وعجيبة، منها قصور ذات الإرم ومبانيها الشامخة فإنها تمثل الجنة في الدنيا بناها شداد بالذهب والفضة والجواهر الثمينة والأحجار القيمة، وأحوال أصحاب الكهب وغيرها من الطرائف والعجائب.

أخبار الزمان للمسعودي:

الاسم الكامل لهذ الكتاب "أخبار الزما ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان العامر بالماء والعمران" لمؤلفه الشهير في علم الجغرافيا أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الذي وصفه ابن خلكان بإمام المؤرخين، كان باهر الذكاء وأشمل الناس علما ومعرفة، الظن الغالب أنه ولد في بغداد في أسرة عريقة في المجد والكرامة وهي أسرة تنتهي نسبته إلى سينا عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل.

تتبع المسعودي في الكتاب في وصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الأمم القديمة وما كانت تعتنقه من الأديان وما تعتقد فيه من المذاهب وما تتبعه من العادات والتقاليد كما ذكر الأيام والشهور والتقاويم.

يذكر عناوين متفرقة في الكتاب ويبحث عن الجوانب العديدة من أخبار الملوك والمدن والبحار والأنهار، إذا تركنا الجانب السياسي والديني في كتابات المسعودي نجد أن حديثه عن البلدان والشعوب التي ارتحل إليها يشغل الجانب الأكبر من المصنفات التي تركها لنا، فيحدثنا عن البحار التي جابها وارتحل إليها، ويخص بالذكر رحلاته إلى المحيط الهندي وشرقي أفريقيا.

الملل والنحل للشهرستاني:

تلقى محمد بن عبد الكريم الشهرستاني العلوم والفنون في إيران في المجتمع الذي عاش فيه، ليس له حلقة وافرة وتلامذة، ولم يكونوا أصحاب

النفوذ والسيطرة والحكومة كما كان خال المحدثين الذين سادوا في المجتمع ولذلك لم تلق له شهرة فائقة. كان مشغوفا بالعلوم والفنون الفلسفية وتعليم الأنظار والوجهات، وكتابه خير شاهد على هذا الموضوع، وقد ألف كتبا عديدة لكنها لم تطبع.

أهم العناوين التي علقها في كتابه "الملل والنحل" هي أرباب الديانات والملل من المسلمين وأهل الكتاب وممن له شبهة الكتاب. المجوس وأصحاب الوثنيين والمانوية وسائر فرقهم تتبع الأهواء والنحل وتتعلق بأصحاب الروحانيات والمجادلات والمحاورات بين الصائبة والحنفاء، والحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة، والمتأخرون من فلاسفة الإسلام، أبو على بين سينا وكلامه في المنطق وفي الهيئات والطبيعيات، آراء العرب في الجاهلية. آراء الهنود وأصحاب التناسخ والبراهمة، فهذه العناوين والمحتويات علقها في كتابه وهي كلها تعد من علوم الفلسفة والتاريخ.

المسالك والممالك لابن حوقل:

هذا الكتاب لمؤلفه الشهير أبي القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي، ولد ابن حوقل بنصيبين الجزيرة. قضى طفولته في نصيبين ثم عزم على السفر والارتحال في السابع من شهر رمضان لتلقي العلوم والفنون. سافر إلى ديار الإسلام ثم أخذ يجوب البلاد نحو ثلاثين عاما لدراسة البلاد والشعوب، ورغبة في الارتزاق من باب التجارة.

كان المؤلف منذ حالة الصبوة مشغوفا زائدا بقراءة كتب المسالك متطلعا إلى كيفية البين بين المسالك في السير والحقائق وتباينهم في المذاهب والطرق، ذكر الصحاوي والبحار، وأوصاف الرسوم والخرائط ومناقبها وأهميتها وجدارتها أمام الرسوم الأخرى.

عجائب الهند لبزرك بن شهريار:

مؤلف هذا الكتاب هو بزرك بن شهريار. كان من مواطني رامهرمز في خليج فارس الشرقي من خورستات، وكان أهلها في قديم الزمان ملاحين يسايرون الركوب في البحار، وأكثرهم ضباط البحر. وكان بزرك بن شهريار أيضا من ضباط البحر يجوب البحر من الشرق بالأمتعى التجارية فذكر في كتاب القصص والحكايات عن الجوابين ورجال البحر بالإسناد إلى الكتب والمصادر الأخرى منها بلاد الهند ويمن والصوماليا مع أفريقيا الساحلية الشرقية ومدغاسكر ولنكا وجزائر إندومان وكاترا وملايا، وأهل الهند والصين من سواحل الجنوب.

رحلة ابن جبير:

مؤلف هذا الكتاب هو الأديب المعروف ابن جبير الأندلسي. كان من سلالة طبقة الكتاب المستوطنة خارج مكة وارتحل أجداده إلى الأندلس وحازوا على مناصب عالية من الحكومة. هناك نشأ وتربى ابن جبير في بيئة علمية، وجاهد في الكتابة والخطابة كان باهر الذكاء فقد تفرد في فن الكتابة والإنشاء والترسل، ولم يستخدم العبارات الغامضة الدقيقة، ويأتي العبارات السهلة الشاذجة.

ذكر المؤلف في الكتاب مصاعب السفر وشدائدها وأخطارها المحدقة، كما ذكر الأماكن والمنازل التي مر بها خلال السفر وفصل ذكر الكعبة المقدسة والمسجد الحرام، ومعظم ما ذكر من التفاصيل توجد في الكتب والمؤلفات الأخرى، والمشاهد التاريخية التي ذكرها من مشاهداته تحمل أهمية تاريخية.

كتاب البلدان لليعقوبي:

مؤلف هذا الكتاب العالم العربي الشهير ابن واضح اليعقوبي، له شغف زائد بمعرفة البلدان والأماكن ولذلك زار البلدان العديدة وتحصلت له معرفة زائدة عن أحوال البلد والأماكن. يمتاز الكتاب بالعبارات الشيقة ولا يستخدم المؤلف الكلمات المترادفة كما يعتاد مؤلفو العصر العباسي، وله مزايا خاصة من

ناحية التراكيب واستخدام الجمل. إنه لم يذكر المصادر والمآخذ كعادة المؤلفين العرب لا في المتن ولا في المقدمة. وبدراسة الكتاب يظهر جليا أنه حصل على هذه المعلومات والمآخذ وما كتب عن المشاهدة والعيان إلا قليلا.

ليس حجم الكتاب مؤسعا، ومستنداته ومآخذه لم تؤخذ بدقة وتحقيق وإذا دققنا النظر على مآخذه وجدنا أمورا جديرة بالإصلاح كما أنه أخطأ في تحديد الجهات من الشرق والغرب والجنوب والشمال. إنه ذكر أن مناطق أذربيجان، ونهاوند، وحمدان، وري، وحلوان، وطبرستان، وجرجان، وقروين، وزنجان تقع في الجهة الشرقية من بغداد مع أنها في الحقيقة تقع في الجهة الشمالية أو الشمال الشرقي.

مروج الذهب للمسعودي:

الكتاب بمثابة وثيقة تاريخية، تنقسم إلى اربعة مواضع هامة أوله علوم الافلاك والنجوم وثانيه علوم الجغرافيا وثالثه الأمم الماضية وأحوال سلاطينها وحكامها ورابعه التاريخ الإسلامي والعناوين الثلاثة الأولى تحتوي على ٦٥٠ صفحة والتاريخ الإسلامي من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العهد العباسي المطيع بالله يبلغ إلى ألف صفحة.

وما ذكر من علوم الأفلاك والنجوم يرجع مصدرها إلى كتب بطليموس وعلماء الهيئة الآخرين وأخذ مصادر الجغرافيا من كتاب بطليموس "الجغرافي" وذكر في صدد الجغرافيا الأقاليم السبعة، والبحار والأنهار المعروفة، والمد والجزر، ونقل البحار من مكان إلى مكان، وتختلف محتويات مروج الذهب من محتويات "التنبيه" وجمع مصادر المؤلفات الأخرى وعباراتها. كما ذكر الحوادث والوقائع التاريخية بدقة وأمانة والتزم بذكر تاريخ الولادة للملوك وتاريخ وقائعهم وصرح بما فيها من اختلاف. جمع المؤلف في الكتاب الأحداث والوقائع من

المصادر المهمة، واستند بالأبيات والأناشيد الشعرية في الكتاب حذو المؤلفين من سلفه.

التنبيه والإشراف:

صاحب هذا الكتاب هو علي بن حسين المسعودي مؤلف أخبار الزمان ومروج الذهب. كان مطلعا على العلوم الفلكية والجغرافية وعلوم الحضارة والثقافة للأمم. تشتمل محتويات الكتاب على ثلاثة موضوعات مهمة أوله علوم الأفلاك والنجوم وثانيه علوم الجغرافيا وثالثه علوم التاريخ.

المصادر والمراجع:

١. آداب الرحلة أ.د. عبد الله بن محمد الطيار
٢. أدب الرحلة د. حسين محمد فهيم
٣. رحلة ابن بطوطة أبو عبد الله ابن بطوطة دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٠م
٤. رحلة ابن جبير محمد أبو حسين ابن جبير دار صادر بيروت ١٩٦٤م
٥. مروج الذهب ومعادن الجوهر أبو الحسن المسعودي المطبعة البهية المصرية ١٩٤٦م
٦. العقل والحضارة عبد السلام نور الدين دار التنور للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٧م
٧. الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق ناجي نجيب دار الكلمة بيروت ١٩٨٣م
٨. ذكريات باريس زكي مبارك المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٣١م
٩. من آثار الشيخ مصطفى عثمان أمين مجلة تراث الإنسانية العدد- ١١ عام ١٩٦٥م
١٠. ا لرحلة الحجازية محمدالسنوسي الشركة التونسية للتوزيع فبراير عام ١٩٨٨م
١١. خريدة العجائب وفريدة الغرائب، سراج الدين ابن الوردي، القاهرة عام ١٣١٦هـ
١٢. أخبار الزمان، أبو الحسن علي المسعودي، مكتبة عبد الحميد الأثرية، القاهرة عام ١٩٣٧م
١٣. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار المعرفة بيروت عام ١٩٩٣م
١٤. المسالك والممالك، أبو القاسم ابن حوقل، طبعة ليدن عام ١٩٣٨م
١٥. عجائب الهند، بزرك ابن شهريار، أبو ظبي عام ٢٠٠٠م
١٦. كتاب البلدان ، احمد بن اسحاق اليعقوبي، دار الكتب العلمية بيروت عام ١٤٢٢م

* * *